

# ذدور آليات التطوع في إدارة الكوارث بالسودان

د. عمر حياىى

جامعة الخرطوم - كلية التربية

## ملخص البحث:

يهدف هذا البحث للتعرف على دور آليات التطوع في إدارة الكوارث بالسودان. تتناول البحث بالدراسة مفهوم العمل الطوعي وأهم الكوارث الطبيعية في السودان ممثلة في الجفاف, المجاعات, الفيضانات. ثم تتناول آليات العمل الطوعي في السودان والتي شملت الراكوبة, براد الشاي, النفير, الفزع, الهلقين, اليتهاموت, وغيرها. تمت مناقشة دور آليات العمل الطوعي في مراحل إدارة الكوارث والتي تشمل تخفيف حدة الكارثة, الاستعداد للكوارث, مجابهة الكوارث وإعادة التوازن. توصل البحث إلى أن لآليات العمل الطوعي في السودان دور كبير في جميع عمليات إدارة الكوارث وإن أكبر المشكلات التي تعوق العمل الطوعي هي عدم وضوح الوضع النموذجي للشراكة وضعف التنسيق.

## Abstract

This research is an attempt to identify the role of voluntary work mechanisms in disaster management in Sudan. The concept of voluntary work has been discussed, as well as the main natural disasters in Sudan (drought, famine, and flood). The traditional voluntary work mechanisms in Sudan which involve; *El Rakopa*, *Baraad El Shai*, *El Nafeer*, *El Fazaa*, *El Halagine*, *El Yathamout*, and others, were reviewed. Also the research investigates the role of voluntary work mechanisms in disaster management cycle; mitigation, preparedness, response and recovery. The research findings pinpointed the fact that voluntary work mechanisms play tangible role in all stages of disaster management in Sudan. Hindrance to voluntary work which are instigated from the research are; unclear partnership model and weak coordination.

سعيًا نحو بقائها واستمراريتها تتشكل، بمرور الزمن وتراكم الخبرات، لدى المجتمعات استراتيجيات واليات تنظم وتقوي علاقات أفرادها، وتحكم مسار حياتها، وتلبي في ذات الوقت حاجاتها. وعلي الرغم من أن تلبية حاجات المجتمعات أمر يقع تحت مسؤولية الدولة إلزامًا، إلا أن ما يتم تلبية من حاجات بواسطة العمل الطوعي في المجتمعات يشكل بعدًا لا يمكن تجاوزه. ولقد أصبحت للعمل الطوعي في الوقت الحاضر قوة يستمدّها من مؤسساته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ومن ومواثيقه الدولية.

بدأ العمل الطوعي في شكل مبادرات اجتماعية قاعدية وتطور عبرها. وما تزال كثير من المجتمعات تحافظ علي هذا الإرث في شكل مؤسسية تتصل بعاداتها وتقاليدها. ولكي تقوم منظمات المجتمع المدني (الوطنية والأجنبية)، المنتشرة في معظم دول العالم التي تعاني من تدهور في أوضاعها البيئية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية فرادي أو مجتمعة، بدورها علي أكمل وجه لابد لها من التركيز علي آليات العمل الطوعي الموروثة لدي الدول أو المجتمعات التي تتعامل معها. ذلك لان لهذه الآليات دور كبير في تفعيل دور المنظمات وتيسير ما تقوم به من نشاطات سواء أن ارتبطت بتتمية مجتمع ما، أو بدرء كارثة عنه. هذا البحث محاولة للتعرف علي دور آليات التطوع في إدارة الكوارث بالسودان.

## 2. مفهوم التطوع:

يعرف التطوع بأنة الخدمات التي تقدم خارج إطار العمل، دون توقع لأي منفعة أو أي مردود مادي، على أن تعود هذه الخدمات بالخير على المجتمع ككل. وبمعني آخر، هو كل جهد جسماني أو عقلي يبذله الأفراد أو الفئات أو الجماعات مبادرين طائعين مختارين أحرارا بقصد تقديم خدمات أو إسداء نفع اجتماعي أو اقتصادي لمصلحة الآخرين دون مقابل مادي أو عيني. وتتفاوت مؤسسات التطوع بين التقليدية القائمة علي تبادل الخدمات والاستجابة الجماعية لحاجات المجتمع في أوقات الشدة (النفير، الفزع) والمؤسسية القائمة علي التخطيط والتنفيذ والمتابعة والتنسيق والتمويل الخارجي.. إلخ و المتمثلة في منظمات المجتمع المدني. وللتطوع نماذج عدة، فيمكن أن يكون ببذل الجهد العضلي أو بالتبرع بالمال والدم لذوي الحاجة أو بالأفكار ويمكن أن يتمثل حتى في إسداء النصح والإرشاد.

إن التطوع هو قمة العطاء، بالنسبة للمتطوعين والمجتمع علي السواء. وذلك لأن المتطوع يبذل راض لغيره ما زاد عن حاجته من قدرات جسمانية ومادية واجتماعية واقتصادية وغيرها. أما بالنسبة

للمجتمع فإن هذا البذل يعبر عن قيم المجتمع الفاضلة، في إطار التراحم والتكافل والتعاقد. ولا يتقيد العمل الطوعي بزمان ومكان معينين، أو بمجتمع دون الآخر أو بدين دون الآخر أو بعرق دون الآخر طالما أن هدفه أنساني في المقام الأول.

وبهذا المفهوم يصبح التطوع في منظومة الفكر المادي على طرف نقيض لمفهوم الواجب. ومن هنا أتى التفريق بين العمل الطوعي وغير الطوعي. علي ذات النهج، بين القطاع الخيري (اللا ربحي)، وقطاع الأعمال (الربحي) والمنظمات الحكومية وغير الحكومية.

ويختلف الأمر في الفكر الإسلامي والمسيحي؛ إذ يتصل التطوع في الفكر الإسلامي بالفرض، كاتصال السنة بالواجب. وقد ينتقل العمل الواحد من موقع للتطوع إلى موقع الفريضة الملزمة. إذ أن الأعمال المرتبطة بفروض الكفاية غالباً ما يتم القيام بها لمصلحة المجتمع بواسطة أفراد أو جماعات لها الرغبة والتأهيل للقيام بمثل هذه الأعمال طوعاً. فإن لم ينهض به أحد صار العمل المطلوب فرضاً ملزماً، وبإثم الجميع ما لم يقم هذا الفرد أو تلك الفئة أو الجماعة أو غيرها بأدائه على الوجه الذي يكفي حاجة المجتمع. ولقد حث الإسلام في مواضع عدة علي أهمية التطوع، منها قوله تعالي (فمن تطوع خيراً فهو خير له) وقوله (ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم).

وجاءت التوجيهات النبوية تحث وتشجع المتطوع بالأجر الوافر في الآخرة، حتى وصل الأمر أن يكون ذلك التطوع وتلك الخدمات المبدولة أفضل من كل أنواع العبادة الفردية، لأن التطوع عبادة يحصد ريعها المجتمع، فمن تلك التوجيهات النبوية قوله: (لئن يمشي أحدكم في حاجة أخيه، خير من أن يعتكف في مسجدي هذا شهراً) ويقول في حديث آخر (أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين) وأشار إلى الوسطى والسبابة. و لعل في قوله: (إن الله عباداً اختصهم بقضاء حوائج الناس حبيبهم في الخير وحبب إليهم أنهم آمنون من عذاب يوم القيامة" وفي قوله ( "من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له" وفي قوله ( "خير الناس أنفعهم للناس" دعم لا محدود لقيم التطوع.

ويدعو الإنجيل إلي التسامح ويعضد ثقافة بناء السلام ويعمل علي إشاعة قيم الحب والإيثار بين الناس، إذ يقول أن تحب قريبك كنفسك" وفي هذا تشابه لقوله ﷺ (حب لأخيك ما تحب لنفسك).

### 3. الكوارث في السودان :

يقع السودان في إقليم شرق أفريقيا بين دائرتي العرض 30, 3 و22, وتبلغ مساحته مليون ميل مربع, معظمها سهول منبسطة, عدا جبال البحر الأحمر وجبال الأنجسنا في الشرق وجبال مرة في أقصى الغرب وجبال الأمتونج في أقصى الجنوب. وينقسم السودان على أساس المناخ والسطح من الجنوب إلى الشمال إلى ست مناطق بيئية رئيسة هي البيئة الشبه استوائية, السافنا الغنية, السافنا المتوسطة, السافنا الفقيرة, البيئة شبه الصحراوية ثم البيئة الصحراوية. ويتدرج المطر السنوي في امتداد السودان من الجنوب إلى الشمال من 1200 إلى 1500 ملليمتر في النطاق شبه الاستوائي في الجنوب إلى 150 ملليمتر في حدود المناطق الجافة وإلى أقل من 75 ملليمتر في البيئة الصحراوية (حياتي وآخرون, 2005).

يعد السودان من أكثر الدول الأفريقية تعرضاً للكوارث. فقد شهد في الخمسين سنة الماضية عدد من الكوارث الطبيعية والبشرية أهمها الجفاف والفيضانات وأمراض النبات وأخطار الجراد والحرائق والأوبئة والصراعات القبلية والحروب. وترجع هذه الكوارث في معظمها إلى أسباب مناخية وأخرى بيولوجية, هذا إلى جانب الكوارث التي يتسبب في حدوثها الإنسان, وفيما يلي تلخيص لأكثرها حدوثاً, وهي الجفاف والمجاعات والفيضانات.

**الجفاف:** تعتبر ظاهرة الجفاف, والتي يتكرر حدوثها في المناطق الجافة وشبه الجافة, من الظواهر الطبيعية التي قد تؤدي إلى كوارث بيئية خطيرة, وترتبط في أغلب الأحيان بكوارث مجاعات. ويحدث الجفاف عندما يكون معدل المطر السنوي أقل من كمية الماء التي يمكن أن تفقد عن طريق التبخر والنتج. فإن حدث هذا في مناطق غير مأهولة بالسكان فإن ما ينتج عنها من نتائج لا يعتبر كارثياً وإن حدث في منطقة مأهولة بالسكان, حتى وإن كانت في الإقليم الاستوائي, فربما يؤدي ذلك إلى فشل في الإنتاج الزراعي والرعي. ويؤثر ذلك على الأمن الغذائي بشكل عام, ويؤدي إلى كارثة.

الجفاف من الكوارث الطبيعية بطيئة الحدوث بعكس الكوارث الأخرى مثل الزلازل والأعاصير والفيضانات, وبالتالي يمكن التنبؤ بها والاستعداد لها. وينظر للجفاف أيضاً كظاهرة اقتصادية واجتماعية تختلف درجة التعرض لها باختلاف القدرات الاقتصادية والتكنولوجية للسكان وباختلاف نظم استخدام الأرض, والتي قد تدعم نويات الجفاف مثل التوسع الزراعي, والتوسع العمراني وإزالة الغابات, وباختلاف استراتيجيات التكيف معه بغية التعايش مع ظروفه أو التغلب عليه أو الخروج منه بأقل خسائر.

يقع جزء كبير من السودان ضمن نطاق الساحل الأفريقي الذي يتميز بتذبذب واضح في كمية المطر السنوي ونمط توزيعه مع ما يصاحب ذلك من زيادة في أعداد السكان، ورعى جائر وإزالة الغابات وتعرية هوائية ومائية تؤدي جميعها إلى استفحال مخاطر الجفاف. وقد شهد السودان في تاريخه الحديث عدداً من نوبات الجفاف التي بلغت أشدها في السنوات "1890-1894" و"1913 - 1914" و"1920-1921" و"1927 - 1929" و"1940-1941" و"1949-1950" و"1968-1973" و"1984-1985" و"1990-1991". ولكن أهمها نوبة الجفاف الحاد الذي تعرضت له البلاد بأسرها في ما بين عام 1984 و 1985م. وقد نتجت عنه خسائر في الأرواح بلغت نحو مائة وخمسين ألف نسمة مع ثمانية مليون وأربعمائة ألف متضرر، وتأثرت به الثروة الحيوانية فقد نفق أكثر من نصفها في ولاية دارفور وكردفان وفشلت الزراعة تماماً في الولايتين هذا إلى جانب تدهور المراعي والأراضي الزراعية. كما انتشرت المجاعة في الولاية الغربية والشرقية وهجرت بشرية واسعة من المناطق المتضررة إلى مناطق أفضل حالاً وهجرت إلى المدن بحثاً عن عمالة يومية في أعمال هامشية وحدث خلل في النظم الاقتصادية والاجتماعية للمزارعين والرعاة لقبائل غرب وشرق السودان (حياتي وآخرون، 2005)..

يتبع كوارث الجفاف عدد من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والبيئية تتمثل في تدهور البيئة، حركة الرمال والتصحر، انخفاض في كمية مياه الشرب، انخفاض كبير في الإنتاج الزراعي ومتوسط داخل المزارع، فقدان أعداد كبيرة من الثروة الحيوانية، النزوح من الريف إلى المدن، انتشار المجاعة والمرض والوبائيات وسوء التغذية خاصة في الريف، انهيار النظم الاجتماعية لسكان الريف، زيادة معدلات البطالة.

**المجاعات:** عرف الإنسان الجوع منذ فجر التاريخ كما عرف محاولات التغلب عليه بابتداع استراتيجيات اقتصادية واجتماعية للتكيف مع ظروف نقص الغذاء. تعني المجاعة لغة عام الجوع، وهي مشتقة من كلمة جوع، والجوع يعني المخمصة، وهي نقيض للشبع (ابن منظور، 1955)، وتعني المجاعة أيضاً انخفاض وجود الغذاء (Sen, 1981). تحدث المجاعات عادة لعدم توفر الغذاء نتيجة لعوامل طبيعية مثل لجفاف، السيول، الأمراض، الآفات الزراعية، أو لعدم القدرة علي شرائه نتيجة فقر ناجمة عن ضعف التدهور الاقتصادي والتضخم والتهميش والحرمان والحروب والنزاعات القبلية تؤدي كل هذه الأسباب إلي ارتفاع أسعاره بصورة لا تتناسب مع دخول الناس، ونتيجة لعدم المقدرة

على الحصول على الغذاء لأسباب اقتصادية أو أمنية. وفي ما يلي استعراض لأهم كوارث المجاعات التي حدثت في السودان:

**مجاعة أم لحم:** تأثر السودان بمجاعات كثيرة خلال الخمسة قرون الماضية. لعل أهمها المجاعة الكبرى المعروفة باسم "أم لحم" والتي حدثت عام 1684 والتي تأثرت بها إقليم سنار، وسنوات المجاعة المصحوبة بوباء الكوليرا بين عامي 1835 - 1838 والتي تأثرت بها مناطق وسط السودان (Hill, 1987). كما يؤرخ لمجاعة خفيفة تعرضت لها مناطق وسط وشرق السودان عام 1885 (القدال, 1983, أبراهيم 1985).

**مجاعة 1888 - 1889م:** هي المجاعة المشهور في السودان بمجاعة سنة ستة والتي تأثر بها شرق وغرب ووسط وشمال السودان. سميت بهذا الاسم لأن تاريخ حدوثها يتفق مع سنة 1306 بالتاريخ الهجري. لم يكن السودان القطر الوحيد الذي تأثر بها، بل معظم أقطار القارة الإفريقية الواقعة في حزام الساحل الإفريقي، وكان السبب الرئيس في حدوثها قلة معدلات الأمطار وأسباب سياسية أخرى (Dahl, 1988). أما في السودان فتشير المصادر إلي أن أسباب حدوثها يتعلق بعدم الاستقرار السياسي في فترة المهديين، إذ لم تتم زراعة الأراضي المتاحة للزراعة سنويا، والتي كانت تكفي حاجة السكان وقتها. ولأن المحصول الذي كان متوقعا من إنتاج تلك السنة من المحصول الزراعي (الذرة)، علي قلته، قد قضت أسراب الجراد علي جزء كبير منه. ويرى بابكر (1985) والحربي (1990) أن مجاعة سنة ستة كانت ناتجة عن آفتي الجراد والفئران التين قضيتا علي المحصول بجانب شح الأمطار وللتقليل من حدة المجاعة.

**مجاعة 1920 - 1921م:** تأثر السودان أيضا بالمجاعة التي ضربت حزام الساحل الإفريقي والتي تأثرت بها معظم مناطق غرب إفريقيا، وكان شح الأمطار عاملا رئيسا فيها. أودت المجاعة بحياة كثير من الناس ونفوق أعداد كبيرة من الحيوانات. ويذكر أن موجة من الجفاف غشيت حزام الساحل الإفريقي والتي بلغت أشدها عام 1913 هي المسؤولة عن استمرار نقص المياه السطحية وتدهور الغطاء النباتي وتدهور إنتاجية (Mortimore, 1989). ويذكر أيضا أنه تم توزيع حصص إغاثة للمتأثرين بالمجاعة، وفي منطقة الهدندوه بشرق السودان سميت "كوريجيت" نسبة لاستخدام السوط (الكراج) في تنظيم توزيع الإغاثة (حياتي, 1994).

**مجاعة 1940 - 1941م و 1949 - 1950م** تشير بعض الدراسات إلي أن أجزاء مختلفة من السودان تأثرت بهذه المجاعة، وإن أثرها امتد حتى عام 1949 في شرق السودان، إذ فقد قبيلة الأمرار أعدادا كبيرة من حيواناتهم ومخزونهم الإستراتيجي. ولقد تم استيراد كميات كبيرة من الفول المصري وتم توزيعها علي المتأثرين (Dahl, 1988). وتشير تقارير الاستعمار البريطاني أن عام 1949 قد شهد قلة في معدلات الأمطار وتدن في إنتاج الذرة وتدهور في صحة الحيوان، كما تشير التقارير الإدارية إلي أن البجا فقدوا نصف أبلهم وتلثي الأنواع الأخرى من حيواناتهم، كما تم توزيع 700 طن من الحبوب فضلا عن كمية من الملابس تم الحصول عليها من جمهورية مصر العربية (Patel, 1992).

**مجاعة 1970 - 1973:** في هذه الفترة، شهدت مناطق وسط وغرب السودان نقصا كبيرا في معدلات الأمطار. إذ كانت دون المتوسط في الفترة من 1969 حتى 1975 في مدينة الأبيض، ومن 1969 حتى 1971 ومن 1975 حتى 1978 في مدينة النهود. أدى هذا النقص في معدلات الأمطار قلة الإنتاج وارتفاع شديد في أسعار الذرة ومن ثم حدوث مجاعة تأثرت بها مناطق غرب وشرق السودان، تبعتها هجرات قسرية إلي المدن، فهاجر 18000 أسرة إلي مدينة بورتسودان (Patel, 1992). ساهمت المعونة الأمريكية بتوفير مواد إغائية للمتأثرين.

**مجاعة 1984:** تعتبر مجاعة عام 1984 من أكثر المجاعات عنفا وتأثيرا علي تركيبة المجتمع السوداني. ويرجع حدوثها لقلة معدلات الأمطار التي بدأت منذ عام 1980 في حزام الساحل الإفريقي (خليل، 1987) والتي أدت إلي فشل إثر ذلك إنتاج محصولي الدخن والذرة الرفيعة كما فقدت 86% من الثروة الحيوانية في غرب البلاد وشرقها. تأثر بهذه المجاعة تأثرا مباشرا 2,8 مليون وتأثر غير مباشر 0,8 من ولايات دارفور، وتأثر بها 1,4 مليون تأثرا مباشرا و 1,2 مليون تأثر غير مباشر من ولايات كردفان (إبراهيم، 1985). شهدت أحداث فترة المجاعة نزح 46,000 نازح إلي مدينة أمدرمان استقروا في أربعة معسكرات، و 45,000 استقروا في مدينة الأبيض، و 25,000 استقروا حول مدينة كوستي، و 53,000 حول مدينة بورتسودان و 22,000 حول مدينة سنكات. هذا بالإضافة إلي موت مجموعات كبيرة السكان.

تؤثر المجاعات سلبيا علي المجتمعات إذ تؤدي إلي خسائر في الأرواح وانتشار الأمراض والأوبئة خاصة تلك المتعلقة بسوء التغذية، وهجرة واسعة إلي المناطق المجاورة، وفقد للثروة الحيوانية، كما أنها تساعد في تفكك الأسرة.

لعدة من المنطق، ألا تجد المجاعات التي حدثت قبل قرن من الزمان ما تجده المجاعات اللاحقة من اهتمام. ويبدو جلياً أن دور منظمات المجتمع المدني بصورته الحديثة المتمثل في عمليات الإغاثة المصاحبة لفترات الطوارئ، كجزء أصيل في إدارة الكوارث، لم يظهر في السودان بشكله الكبير هذا إلا أثناء وبعد مجاعة عام 1984. وكان دور هذه المنظمات ملموساً في توفير الغذاء والدواء والمأوى للمتأثرين ولقد لعب متطوعو جمعية الهلال الأحمر السوداني وغيرها من المنظمات دوراً كبيراً في عمليات الإغاثة تلك. أما المجاعات التي حدثت في فترة المهديّة أو قبلها، فيغلب علي طابع إدارتها البعد الطوعي الداخلي للمجتمع السوداني المتمثل في الطرق الصوفية والمسجد "التكية" والتعاون والتكافل الاجتماعي.

**الفيضانات:** تعد الفيضانات من المخاطر الشائعة والأكثر حدوثاً وتردداً وتلثيراً على الإنسان وبيئته. وأهم خصائصها أنها قد تؤدي إلى تدمير عنيف وواسع في الممتلكات والمنشآت وتؤثر سلباً على أعداد كبيرة من السكان، ولكنها لا تؤدي إلى خسائر كبيرة في الأرواح. يحدث الفيضان عندما تفوق المياه الواردة للمجري المائي من المصادر المختلفة مقدرته على استيعابها فتتجاوز المياه ضفتي النهر، وهناك عدة أنواع من الفيضانات أهمها الإقليمي والخاطف وفيضانات الانهيارات الأرضية وفيضانات فشل السدود والحواجز.

يعتبر عدم إدراك السكان لمخاطر الفيضانات وتوطنهم في السهول الفيضية وتشبيدهم لمباني لا تقاوم خطر الفيضان، وعدم وجود قوانين تنظم تصميم المباني وطرق ومواد البناء، وإزالة الغابات والاستخدام غير الرشيد للأرض، وانهيار الحواجز والسدود، والنقص في المعلومات والبيانات المتعلقة بحدوث الفيضان والقصور في نظم الإنذار المبكر من أهم عوامل التعرض للفيضانات.

تؤدي الفيضانات إلى تدمير الممتلكات والمنشآت العامة والمنازل وإتلاف الأراضي الزراعية، وتؤثر على البنية التحتية في المدن والقرى خاصة الطرق والمجاري، ونزوح وظهور الأمراض والأوبئة، ونقص في إمدادات المياه والغذاء والطاقة.

يعانى السودان من الآثار التدميرية لفيضانات الأنهار والسيول، وقد تعرض لعدد من منها خلال الأعوام 1925 و1985 و1987 و1988 و2001 و2003. ومن أكثر الفيضانات تدميراً وعنفاً ذلك الذي حدث في عام 1988م. فقد هطلت يوم 4 أغسطس 1988 أمطار بلغت كميتها 200.5 مم في الخرطوم. وتلا ذلك قمتين صغيرتين يومي 12 و14 أغسطس، والواقع أن أمطار أغسطس (301.4 مم) في تلك السنة كانت غزيرة للغاية بالمقارنة مع متوسط أمطار شهر أغسطس للسنوات



1983 - 1987 (11.78م) كما أن مجموع المطر في عام 1988م الذي بلغ (785.5م) كانت قياسية بالنسبة لعام 1946 (223.9م) والذي حدث فيه أسوأ كارثة فيضان سابقة في السودان. وتعد كارثة فيضان 1988م من أسوأ الكوارث التي تعرضت لها الخرطوم الكبرى فقد بلغت تقديرات الخسائر الأولية في أم درمان 208.5 مليون دولار وفي الخرطوم 421 مليون دولار ، كما المياه إلى إغراق مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية وانهيار الطرق والجسور هذا بالإضافة إلى خسائر في الأرواح والممتلكات وانتشار بعض الأمراض الوبائية. وتأثر توليد وتوزيع الكهرباء لأن عدداً من محطات التوليد غطتها المياه، وتأثرت تنقية وتوزيع المياه لزيادة نسبة الطمي، تلاف للأنايبب وإعاقه التنقية.

#### 4. آليات العمل الطوعي في السودان:

ساهمت البيئات الجغرافية المتنوعة والتداخل الإثني والثقافي في السودان في خلق أساليب عدة، وإستراتيجيات إيجابية للتكيف مع شح الموارد وإدارتها من ناحية، والكوارث الطبيعية والبشرية من ناحية أخرى. وأصبحت هذه الإستراتيجيات تشكل، بطريقة أو بأخرى، خارطة البناء الاجتماعي وثقافة التعايش السلمي في السوداني. وفي ما يلي عرض لبعض هذه الآليات:

(أ) **الراكوبة:** هي آلية من آليات فض النزاعات في دارفور. و الراكوبة لغة هي التقيفة وتعنى مظلة تبنى من المواد المحلية (حشائش جافة "قش" وفروع أشجار) يستظل بها عند الظهيرة. ويكثر وجودها في المناطق الزراعية وفي فناء المنازل في المناطق الريفية والحضرية علي السواء في السودان. ويعبر عن معني الراكوبة اصطلاحاً للدلالة علي أمرين. يشير الأول إلي اتفاق طرفين خصمين علي الجلوس علي مائدة المفاوضات لفض نزاع بينهما. والثاني إلي جلوس الطرفين فعلاً تحت الراكوبة بوجود طرف ثالث محايد، يستمع في هذه الجلسة للمرافعات ويصدر الحكم ويبرم عقد صلح بين الطرفين . وهي بهذا المعني أقرب إلي مفهوم كلمة "مجالس الصلح" الشائعة في معظم ربوع السودان وإن قبول الطرفين الخصمان علي مبدأ الراكوبة، الذي يتقدم ببادر به عادة الطرف الثالث المحايد، إعلان للهدنة. وفي الهدنة أو التأجيل إيضاح لدلالة أخرى ضمنية تشير إلي دور الراكوبة (لغة) في الاحتفاظ بالأشياء التي لا حاجة للناس بها في الوقت الراهن، فترفع علي سقف الراكوبة أو فوقها لحين الحاجة. وللراكوبة بعد آخر يتصل بسعة المكان ورحابته وخلوة من الالتزام المفرط في الجانب البرتوكولي والضيافة.

وحتى تسود روح التسامح بين الطرفين يتصل بالراكوبة سلوك عرفي آخر يسمى بـراد الشاي. وهو تعبير عن رضا الطرف المدان وقبوله الحكم الذي صدر في حقه. ويتمثل أن يقوم الطرف المدان بتكريم الطرف الثاني في النزاع والطرف الثالث المحايد. وعلي الرغم من أن هذا التكريم يرمز له ببراد الشاي إلا أنه في واقع الأمر يوم تذبح فيه الذبائح وتعد فيه الولائم ويشرب فيه الحضور الشاي تعبيراً عن القبول بالحكم والتسامح والسلام.

**(ب) النفير:** هو آلية أخرى هي آليات العمل الطوعي في مجال التنمية شائعة في معظم ربوع السودان. تقوم فكرته علي إدارة الوقت، وذلك باستنفار عدد من الناس للإنجاز عمل معين في وقت معين يصعب القيام به في الظروف "العادية". وهو عمل طوعي خالص غير مأجور. والأصل فيه استنفار الناس وشحنهم بواسطة مبادر أو صاحب الشأن نفسه لأداء مهمة لصالح فرد مستضعف أو أفراد أو جماعات. وللنفير صور عدة تظهر في كثير من الممارسات اليومية. من هذه الصور النشاطات المتصلة بالعمل الزراعي مثل الزراعة والنظافة والحصاد، والمتصلة بتوفير مياه الشرب كحفر الآبار والحفائر ونظافتها، والمتصلة بالمسكن كبناء الور، إلي غير ذلك من الأعمال التي تتطلب المجهود العضلي الجماعي.

كثيرا، ولكن ليس بالضرورة، ما تتصل أعمال النفير بالزراعة المطرية، الجروف والزراعة الحوضية التي يكون عامل الوقت حاسما في تحديد وقت الزراعة والنظافة وغيرهما. خاصة إذا ما وضعنا في الحسبان ارتباط الزراعة المطرية بنظام العين (الذراع "الضراع"، النتر، الطرفة الجبهة .....). فإن فات أحد الأفراد الوقت المعين للزراعة، والمتفق عليه عرفاً، استنادا علي الخبرة والتراكم المعرفي، اختلفت عنده معايير النشاطات الزراعية الأخرى، لأن لكل عينة نشاط معين يؤدي فيها. فمن توقع فوات أو ان الزراعة استنفرت من يحسب فيهم خيرا لمساعدته. فيأتي كل متطوع بمعوله ووقته وساعده. ويقوم المستنفر بتوفير الغذاء الكافي للمتطوعين.

**(ج) الفرع:** وهو آلية من آليات العمل الطوعي القائمة علي العدالة ونصرة ومؤازرة الضعيف. وقد يكون الضعيف هذا قويا بمعايير القوة في المجتمع الذي يعيش فيه. ولكنه عند حدوث النائبات يصبح في أمس الحاجة إلي قوة الآخرين ليزيدوه قوة. وتتمثل النائبات في مشاهد عدة منها اقتفاء أثر مال مسروق، أو نجدة غريق، أو البحث حيوانات أو بهائم سرقت أو ضلت، أو استغاثة ملهوف طلب النجدة، وقال بلهجة سودانية يا "أبو مروه" وكان في موقف لا يحسد عليه.

وبلغة إدارة الكوارث يكون الشخص المستغيث هذا في "مرحلة الطوارئ"، وهي أولى مراحل مواجهة الكارثة وتتميز بقصر الفترة الزمنية، مقارنة ببقية المراحل، والتخبط وكثرة الأخطاء خاصة إن كانت التدابير المتصلة بالاستعداد للكوارث ضعيفة. ولعل في هذا تبرير لما يحدث من قتل نفس بغير قصد أو إلحاق أذى جسيم لشخص غير مقصود إذا ما استغاث أحد ليلاً دالاً علي وجود لصوص في منزله. وقد يحدث القتل أو إلحاق الأذى لظن الفاعل أنه يصيب اللص فيصيب آخرًا.

**(د) الهلقين:** هو آليتميزة من آليات العمل الطوعي أفرد بها أهل شرق السودان، وسادت بين أفراد قبيلة الهدندوة علي وجه التحديد. فالهلقين عبارة عن هدايا عينية تقدم عادة في شكل حيوانات من أفراد القبيلة لكل من تأهل للحياة الزوجية. ويقوم العريس بجمعها بنفسه. إذ يخرج في جولة تستغرق من سبعة أيام إلي عشرة أيام تبدأ عادة في اليوم الخامس من زواجه يقصد فيها أهلة وأقاربه. يصطحبه في هذه الجولة، علي ظهور الجمال، مجموعة من الشباب من أبناء عمومته وأخواله. وعند وصولهم دار أحد الأقارب يكرمون وتقدم لهم هدية في شكل رأس أو رأسين من الضأن أو الماعز أو الإبل. وعلي هذا المنوال، يسير الحال إلي أن يطوف العريس بمعظم أهله وأقاربه. ويجمع في نهاية الأمر ما تجود به أريحتهم من حيوانات تتراوح بين 10 - 20 رأساً من مختلف أنواع الحيوانات، وهي الثروة التي من المفترض أن يبدأ بها العريس حياته الجديدة. علية فان الهلقين في واقع الأمر وسيلة من وسائل التأهيل الاقتصادي ووسيلة من وسائل توزيع الثروة، إذ أن فيه ضمان أن يظل كل فرد مالكا لعدد من الحيوانات (حياتي، 1994).

**(هـ) اليتهاموت:** هو أيضا آلية من آليات العمل الطوعي سادت بين أفراد قبيلة الهدندوة. وهو نظام إهداء أشبه بأن يتبرع المرء بأرباحه مع احتفاظه برأس المال. ويعبر اليتهاموت عن دور الفرد الموسر، إن كان يملك ثروة حيوانية كبيرة، الاجتماعي تجاه المعوزين في المجتمع. يتمثل ذلك في إهدائهم صغار الحيوانات أو تسليفهم حيوانات مدرة للألبان علي أن يقوم الفرد المعوز برعايتها والاستفادة من ألبانها وردها إلي صاحبها إن جف ضرعها. وللموسر في هذه الحالة أن يستردها أو يبدله غيرها أو أن يهديها له كلية وهذا هو المحمود. (حياتي، 1994). ويعكس

اليتهاموت, أو ما يسمى "بالقطيفة" في وسط السودان صورة حية من الإيثار و التكافل الاجتماعي وفي ذلك أمن غذائي للأسر الفقيرة.

**(و) صور أخري:** هنالك صور أخري كثيرة ومتعددة لا يتسع المجال لذكرها, تتمثل في تزويج العلماء ورجال الدين الوافدين, وفاءاً لهم وتقديراً لخدمتهم الجليلة تشجيعهم على الاستقرار لكي يؤسسوا الخلاوي ودور العبادة ويعلموا الناس أمور دينهم وديانهم. وقد شجع على ذلك سلاطين دارفور حيث قدم إلى دارفور غالبية العلماء بدعوة كريمة منهم فأحسنوا وفادتهم وملكوهم الأراضى(محمد, بدون تاريخ). وصور أخري تتمثل في **المسيد** وهو مقر صوفي يعلم القرآن ويأوي ويكرم الضيف (التكية) ويساهم في حل المشكلات الاجتماعية. ويساهم في ميزانية تسيير المسيد الخيريين بالمنطقة التي يوجد فيها. وكثيرا ما أعتبر المسيد نواة لقرية أو مدينة سودانية (أم ضوا بان, طيبة الشيخ عبد الباقي, الزربية, ود حسونة).

ومن الصور الأخرى, **الضراوهو** غرفة كبيرة أو ديوان كبير في الحي أو القرية, يجتمع فيه الرجال لمناقشة قضاياهم ويتناولون فيه وجباتهم التي ساهم فيها جميعهم كل بما توفر له, ومن لم يجد في بيته شيء فلا حرج عليه إن هنالك ضيوفا أكرموا ضمن الحضور.

وهنالك **السبيل**, وهو جرار الماء البارد تعد للسابلة يشرب منه الغادي والرائح (محمد, بدون تاريخ), يملأ متى ما فرغ أو كاد بواسطة القائم عليه, الذي بجانب ذلك يتولى نظافته وحمايته. ومنها **المساهمة في الأفراح والأتراح** (الكشف والمساهمات العينية) أو إيواء طلبة العلم ورعايتهم (إسكوف, 2003). كما تخصصت بعض ضروب العمل الطوعي **بالمساهمة في نفقات التعليم** العام والعالي كاستئجار بعض المؤثرين الدور في بعض الأحياء لتستقل سكنا لطلاب الجامعات. وقديما تكفل **صندوق البجا** بكل بنفقات التعليم العالي لمجموعة من الطلاب أوفدهم للدراسة الجامعية بسوريا ومصر. هم الآن من رواد الحركة الثقافية والسياسية بشرق السودان.

**(ز) الأدب الشعبي:** يعج الأدب الشعبي السوداني بصور التعبير الصادق عن قيم المروءة والإيثار. ذلك لما يتمتع به أهله السودان من ثقافة عالية لمفهوم العمل الطوعي. تعبر كثير من الأمثال الشعبية عن هذه القيم, مثل "عيب الزاد ولا عيب سيدو", "الشجرة إن مالت بتتكي علي أخواتها",

"الفقراء إتقسمو النبقة"، فسلأ بين ولا جوداً ملكك". هذا فضلا عن وجود كثير من صور التعبير في الشعر الشعبي منها:

بوصيكم علي السيف السنين أسعوه  
بوصيكم علي الفايث الحدود واسوه  
بوصيكم علي الجار إن وقع شيلوه  
بوصيكم علي البيت الكبير أبنوه  
بوصيكم علي ضيف الهجوع عشوه

تدعو هذه الأبيات للتمسك بقيم اجتماعية فاضلة، ما أن حلت وتمثلت في مجتمع إلا تمتع بالأمن الاجتماعي والغذائي. وهذه القيم، المتمثلة في العدل والمساواة، وحق الجار والتضامن والتكافل الاجتماعي والكرم، هي أساس العمل الطوعي (حياتي، 2003). ويقوم الأدب الشعبي بحفظ هذا الموروث من آليات العمل الطوعي، والتذكير بها في صورة حكم وأمثال وأشعار، والتأكيد علي ما تحتويه من قيم عليا يتمتع بها المجتمع السوداني.

## 5. العمل الطوعي وإدارة الكوارث:

المخاطر والكوارث مفهومان مختلفان ولهما دلالات مختلفة ولكن كثيراً ما يخلط بينهما وكثير ما يستخدمان مترادفان. فالمخاطر هي حالة أو حدث طبيعي، خارج إرادة الإنسان، مثل البراكين، العواصف، الفيضانات وغيرها يترتب عليها أضراراً فادحة (محتملة) على الإنسان أو ممتلكاته ومصالحة أو على بيئته. و لا يعتبر الحدث كارثة إلا إذا وقع وسط تجمعات بشرية كانت أو تقيم في مواقع التعرض للمخاطر مثل السكن في مجاري السيول. ولولا وجود الإنسان في منطقة الحدث فلن يكون هناك أي خطر مهما كانت قوته (حياتي وآخرون 2005). أما الكوارث: فهي تعطيل جدي وخطير في حركة العمل الطبيعي للمجتمع يسبب خسائر بشرية ومادية وبيئية فادحة تتعدى مقدرات المجتمع الذاتية للتعامل معه، وتعرف أيضاً بأنها حدث طبيعي مركز زماناً ومكاناً يتميز بتأثير سريع وفجائي على النظم الاقتصادية والاجتماعية مع ظهور نتائج سلبية ناجمة عن انهيار أو عدم وجود الحذر لتخفيف أو منع الخسائر والأضرار. وينظر للكارثة على ضوء علاقة محدودة بين المخاطر الطبيعية وآثارها السلبية على الإنسان وممتلكاته وأنشطته، كما يجب أن يوضع في

الاعتبار الدور البشرى في حدوث الكارثة أو تعاضمها فالفيضانات والتصحّر والمجاعات لها أحياناً من الأسباب البشرية ما يساوى الأسباب الطبيعية (المصدر السابق).

إن الكوارث والعوامل المسببة لها من الأمور شديدة التعقيد بدرجة يصعب معها تصنيفها ووضع أحكام عامة عنها، ولذلك ظهرت عدة طرق لتصنيفها بناءً على مسبباتها أو سرعة وقوعها أو طبيعتها وخصائصها. إن أهم المحاولات لتصنيف الأخطار اعتمدت على سرعة حدوث الكارثة أو العوامل المسببة لها. ففي ضوء سرعة حدوثها صنفت الكوارث إلى كوارث سريعة الحدوث أو فجائية قد تقع في ثواني " الزلازل"، أو دقائق " عواصف الهريكين " أو ساعات " الفيضانات الخاطفة " وكوارث بطيئة الحدوث، وهي كوارث تمتد لفترة طويلة تضعف خلالها تدريجياً مقدرة المجتمع لتحمل آثارها مثل الطفح البركاني الذي يمتد لشهور والجفاف والتدهور البيئي والمجاعات وكلها قد تمتد لسنوات عدة.

أما تصنيف الكوارث في ضوء العوامل المسببة لها فصنفت إلى كوارث طبيعية تنتج عن حدث طبيعي يتأثر به الإنسان وتنقسم إلى مخاطر جيوفيزيائية جيولوجية وتشمل الزلازل والطفح البركانية والانزلاقات الأرضية والتسونامى والانهيارات الجليدية، ومخاطر مناخية وتشمل الفيضانات والعواصف المدارية والعواصف الثلجية وموجات الحرارة المرتفعة والحرائق والجفاف، ومخاطر بيولوجية وتشمل الأمراض البوائية وأمراض النبات والحشرات. ولـي كوارث من صنع الإنسان ترجع لأسباب بشرية متعمدة أو غير متعمدة ينتج عنها خسائر في الأرواح والممتلكات والخدمات الأساسية والنزوح وخلخلة التوازن الاقتصادي والبيئي، وتضم الحروب والنزاعات القبلية وإزالة الغطاء النباتي وقطع الأخشاب وكوارث المصانع .. (المصدر السابق).

عرف الإنسان الكوارث منذ فجر التاريخ وعرف كيف يضع استراتيجيات لتخفيف آثارها والتقلب عليها أو، أن فشل في الأخيرة، الخروج منها بأقل خسائر. ويختلف الناس من منطقة لأخرى في إدراك وإدارة الكوارث بدرجات متفاوتة، استناداً على الخبرات والتدريب والتعليم والمصالح الذاتية والقدرة على فهم وأبعاد ونتائج الكوارث.

يعرف كاسبيرسون وبيجادكا إدارة الكوارث بأنها نشاط هادف يقوم به المجتمع لتفهم طبيعة المخاطر الماثلة لكي يحدد ما ينبغي عمله إزاءها واتخاذ وتنفيذ التدابير للتحكم في مواجهتها وتخفيف حدتها وآثار ما يترتب عليها، إن هذا النشاط الهادف يتصل بوظيفتين هامتين هما الإدراك والتحكم. ينبني الإدراك على استيفاء المعلومات لتحديد حجم المشكلة أو الخطر، واستكشاف

البدائل للمواجهة وتقويم الموقف عند نهاية الكارثة لتحديد حجم النجاح الذي تحقق، أما جانب التحكم فيتصل بتصميم وتنفيذ التدابير اللازمة لدرء أو تخفيف حدة الخطر وما يترتب عليه من آثار<sup>٦</sup> (الطيب، 1992).

وبهذا الفهم فإن إدارة الكوارث تتطلب توفير المتطلبات الاقتصادية والتقنية واللوجستية لدرء الكارثة، وتدريباً للقوى العاملة في الإدارات الحكومية ذات الصلة ومتطوعي منظمات المجتمع المدني ليقوموا بدورهم بفعالية وكفاءة، وتأكيداً لمشاركة الجمهور في كل نشاطاتها، وشفافية وثقة يتصلان بتبادل المعلومات بين الإدارات الحكومية والجمهور، قدرة على تصميم خطط بديلة لمجابهة المسارات المختلفة التي يمكن أن تتخذها الكارثة بناء على الظروف الشرطية لطبيعتها.

## 6. دور العمل الطوعي في مراحل إدارة الكوارث:

إن الإدارة المنظمة والفاعلة للسيطرة على المخاطر والكوارث تشمل أربع مراحل أساسية مرتبطة ومتداخلة مع بعضها البعض هي تخفيف الكارثة، الاستعداد، المجابهة وإعادة التوازن.

**(أ) تخفيف الكارثة:** هي التدابير والإجراءات والأنشطة التي تتخذ قبل حدوث الكارثة وبعدها لتخفيف آثارها التخريبية والتدميرية وتوفير كل ما يلزم لإعادة التوازن للمنطقة وللسكان المتأثرين بها، وأساليب التخفيف من حدة الكارثة تشمل جوانب هندسية تشمل في تطبيقات تكنولوجية معينة، مثل بناء الجسور أو تصميم المباني، أو نظم استخدام أرض، وجوانب تنظيمية تتصل بالسياسة العامة للدولة، وجوانب اجتماعية تهتم بتوعية وتدريب السكان والمتطوعين، ووضع برامج توفير الغذاء والماء وتنظيم الجهد الشعبي وتنظيم عمليات الإنقاذ والإغاثة... الخ.

هذه التدابير ليست جديدة على المجتمع السوداني، بل تمارس ضمناً قبل حدوث الكوارث. ولعل في تجربة سكان جزيرة توتي في التصدي للفيضانات القائمة على الشعور بالوحدة والعمل المشترك والتضامن الاجتماعي. إذ يجتمع أهل الجزيرة قبل زيادة منسوب مياه النيل، فيضعون الخطط، ويحددون مواقع الجسور والتروس وأطوالها وارتفاعاتها، وعدد ومصادر معاول الحفر، ويقسمون الأدوار، ويعينون الأشخاص كل في موقعة، ويتحمل الشباب وزر التصدي المباشر لمناطق الثغور وبناء المصدرات والجسور وعمليات الإنقاذ، بينما توكل للصبيان مهام لتوزيع الخدمات من ماء

وغيرها. وكما لكبار السن دور في التوجيه والإرشاد والتدريب, بناء علي خبراتهم السابقة, للنساء دور آخر في إعداد الطعام. وتتم كل هذه الاستعدادات قبل وقت كاف تحسبا لحدوث الكارثة.

**(ب) الاستعداد :** هو النشاطات الهادفة إلى توفير المتطلبات الاقتصادية والتقنية واللوجستية لدرء الكوارث والتقليل من آثارها التدميرية. وتشمل وضع الخطط لمجابهة الكارثة وتوفير كل المعدات اللازمة وبناء القدرات (الطيب, 1992).

وتشير تجارب سكان قري منطقة شرق الجزيرة إلي عمل طوعي يتصل بالاستعداد للكارثة قبيل فصل الخريف. إذ تجد سكان كل قرية يتعاونون, متخذين من النفير آلية, علي تغير مجاري السيول التي تهدد قريتهم, ويدفنون الحفر والمناطق المنخفضة, ويؤمنون جدر منازلهم وأسوارها.

**(ج) عمليات الطوارئ المجابهة:** تعتمد هذه المرحلة على القدر الذي سبقها من الاستعداد والتحضير هذا بالإضافة إلى ما هو متوفر من معلومات عن المقدرة التدميرية للكارثة إذ يستند عليها على اتخاذ القرارات المتصلة بتخفيف آثارها. وهذه المرحلة غالباً ما تكون قصيرة وتتم أثناء الكارثة أو الفترة التالية لها مباشرة, وأهم العمليات التي تتجز فيها هي إنقاذ الأرواح والممتلكات وتوفير المأوى والماء والغذاء والخدمات الصحية وإعادة إصلاح وتشغيل الطاقة وشبكة المياه والاتصال والجسور... الخ (الطيب, 1992).

يبرز العمل الطوعي في السودان بشكل واضح في عمليات مجابهة الكوارث. لأنها مرحلة حرجة, قصيرة وحساسة. ويكون فيها المرء المنكوب في أمس الحاجة إلي العون والإغاثة. ولقد أكدت كثير من الأحداث الأساسية المصاحبة للكوارث سرعة استجابة المواطن السوداني لنداءات الاستغاثة. فعندما التف نهر القاش حول بعض الأحياء الواقعة علي ضفافه الشرقية عام 2003, وجهت إدارة الطوارئ بجمعية الهلال الأحمر السوداني فرع ولاية كسلا نداء لمتطوعيها بالمدينة عبر إذاعة الولاية الإقليمية. وفي ظرف ساعة من الزمان كان بمقر فرع الجمعية بولاية كسلا 800 متطوعا, كان لهم دور واضح في إنقاذ الأرواح من المنازل الآيلة للسقوط, وتأمين بعض الممتلكات, وساعدوا بمعاولهم وقدراتهم في فتح المجاري, وساهموا في توزيع الخيام والماء والغذاء مما هو متاح من المخزون الإستراتيجي بمخازن فرع الجمعية بولاية كسلا. كما كان لهم دور ملموس في جمع المعلومات وتقديم خدمات الإسعافات الأولية والإسعاف الميداني.



**(د) إعادة التوازن:** تغطي هذه المرحلة العمليات الهادفة لإعادة المنطقة التي اجتاحتها الكارثة لحالتها الطبيعية وتضم خطة بعيدة المدى تشمل إعادة الحد الأدنى من الخدمات والنشاطات الاجتماعية والاقتصادية لوضعها الطبيعي كتوفير المأوى المؤقت وإصلاح المنازل وإمدادات المياه والكهرباء وغيرها، كذلك تضم خطة طويلة المدى تهدف إلى أعاقه أو منع الكارثة أو تقليل قابلية المنطقة المتأثرة للتعرض لذات المخاطر مثل استخدام قوانين للسلامة في المصانع، وقوانين تعنى بتصميم المباني، ونظم التحكم في الفيضانات وقوانين استخدام الأرض وبرامج تخفيف الفقر وتوفير الخدمات الأساسية للسكان. العمل الطوعي.

إن آليات العمل الطوعي، من خلال النشاطات التي يشارك فيها المواطن السوداني، تركز علي المراحل الثلاث الأولى من إدارة الكوارث والتمثلة في تخفيف الكارثة، الاستعداد، المجابهة. أما مرحلة إعادة التوازن فإن الاستجابة في برامجها أقل قدرا من المراحل الثلاث الأخرى. وربما يعزي ذلك إلي عدم قناعة بعضا من عامة الناس بجدوى مشاريع تبني علي خطط طويلة الأجل. ولكن رغما عن ذلك، توجد بعض شواهد العمل الطوعي تدلل علي الاستجابة طوعا في برامج إعادة التوازن. وعلي سبيل المثال انخرطت مجموعات كبيرة من الشباب من الجنسين في مراكز النازحين بدارفور في المساهمة في العملية التعليمية بفتح المدارس ومزاولة مهنة التعليم، وانخرط غيرهم في تعلم أساليب جديدة في بناء الدور عبر حلقات علمية نظمتها منظمة *اكتكال آكشن* ( Practical Action) وطبقوها عمليا.

يتضح مما سبق، أن العمل الطوعي في السودان متأصل في جميع النشاطات المتصلة بكل مراحل إدارة الكارثة. وفي هذا تأكيد للبعد الإنساني للعمل الطوعي الذي لا ينفرد به نشاط دون الآخر طالما أن الإنسان الذي توجه إليه نشاطات العمل الطوعي هو نفس الإنسان بغض النظر عن الظروف التي يمر بها (كوارث، تنمية، سلم، حرب).

## 7. معوقات العمل الطوعي:

بالرغم من تأصل قيم العمل الطوعي في المجتمع السوداني لما يتمتع به أهل السودان من تراث غني بالقيم والمبادئ والمعايير والأخلاقيات، وبالرغم من أن التجربة السودانية المتفردة بآلياتها ونشاطاتها الطوعية في ظروف الحرب والسلم والكوارث والتنمية يمكن تقديم للعالم مثالا يحتذى، إلا

أن هنالك عقبات في طريق هذه التجربة، إن لم يتم تداركها، ربما تؤدي إلي ردود أفعال سلبية تهز قيم التطوع ومن ثم تشل أو تضعف من آلياته. ترتبط هذه العقبات بالجهات التي تتبني وتعتمد في كثير من نشاطاتها علي قيم التطوع وتتمثل منظمات المجتمع المدني، المجتمعات المحلية والدولة.

تعدد وتنوع القدرات الوطنية العاملة في إدارة الكوارث بالسودان تنأتي في مقدمتها المؤسسات البحثية ممثلة معهد دراسات الكوارث اللاجئيين (بيمارسي) بجامعة إفريقيا العالمية، كلية الدراسات البيئية والكوارث بجامعة الرباط الوطني، معهد دراسات السلم بجامعة الخرطوم، مركز دراسات السلام بجامعة جوبا وغيرها. تليها مؤسسات رسم السياسات والتنسيق والتشبيك ممثلة في الإدارة العامة للطوارئ بوزارة الشؤون الإنسانية، الدفاع المدني بوزارة الداخلية، المجلس السوداني للجمعيات الوطنية (إسكوبا). ثم تأتي في المركز الثالث منظمات المجتمع المدني "الحديثة" ( وطنية - أجنبية) التي تستفيد من قدرات سابقتها في تنفيذ نشاطاتها المباشرة المتصلة بإدارة الكوارث. من هذه المنظمات جمعية الهلال الأحمر السوداني وأنا السودان، بلان سودان، وغيرها.

تعاني هذه القدرات الوطنية من عقبات عدة كل في إطاره، فالمؤسسات البحثية بعيدة عن مراكز اتخاذ القرار المتصلة بإدارة الكوارث، ومؤسسات رسم السياسات والتنسيق والتشبيك تعاني من تداخل الاختصاصات لعدم وضوح الوصف الوظيفي وتقسيم الأدوار حتى علي المستوي الوزاري. أما منظمات المجتمع المدني "الحديثة" فإنها تعاني من عقبات كثيرة ومتنوعة منها ضعف أو عدم وضوح الوضع النموذجي للمشاركة، وغياب أو ضعف التنسيق، واختلال الأولويات، وشح التمويل، وتدني القدرات، والتسييس وغيرها.

تؤثر هذه العقبات سلبا علي العمل الطوعي في إطارين اثنين، يتصل الأول بتهميش دور مؤسسات العمل الطوعي التقليدية في المجتمع و المعبرة عن روح العمل الطوعي الأصيل فيه وتدعم في ذات الوقت عمل منظمات المجتمع المدني "الحديثة"، بشقيها الوطني والأجنبي، والمثقلة بالمشكلات سالفه الذكر. بينما يتصل الثاني بزيادة تدهور أوضاع المجتمعات المعرضة للكوارث جراء تأخر أو انعدام الاستجابة الفورية حال وقوع كارثة بسبب ضعف التنسيق. وفيما يلي استعراض لأهم العقبات التي تؤثر علي العمل الطوعي:

## (أ) عدم وضوح الوضع النموذجي للمشاركة: أصبح العمل الطوعي ضرورة في عالم اليوم في

ظل التحديات والصعوبات المتزايدة والكوارث الطبيعية والبشرية من ناحية، وفي ظل تقصير كثير

من الحكومات في تقديم الخدمات اللازمة ولضعف بعض شرائح المجتمع وعدم قدرتها علي الحصول علي هذه الخدمات من ناحية أخرى. ولكن التطوع، وإن بني علي بعد إنساني، فإن أجدياته تتطلب الشراكة بين أضلاع ثلاثة: الأول متطوع ممول (المنظمات الدولية المانحة، مثل دانيدا "DANEDA" وبرفنتشن "PRO-VENTION")، والثاني منسق، وهذا قد يكون متطوعاً أو موظفاً أو الاثنان معاً، ويمثل حلقة وصل بين الجهات الممولة والأخرى المستفيدة (معظمات المجتمع المدني المحلية والأجنبية)، والثالث متلق وهو يمثل الجهات المستضعفة التي قام من أجلها العمل الطوعي أساساً (الجهات المستفيدة)، وهي عملياً تحت مسؤولية الدولة. وكل يريد ضماناً لحقوقه. فالجهات الداعمة يرتبط عملها بنظم أساسية وبرتوكولات دولية ولكي تصل إلي الجهات المستفيدة لابد لها من أن تدخل البيوت من أبوابها (عبر الدول). وهنا يبرز دور الدولة ممثلة في سيادتها ومؤسستها ولوائحها أنظمتها. ومنظمات المجتمع المدني تسعى لاستدامة برامجها بتوطيد علاقاتها مع الجهات الداعمة والجهات المستفيدة. ويرى كثير منها أن ليس للدولة حق في التدخل في شئونها طالما أنها قصرت في إيجاد خدمة معينة لفئة من الناس، وهي بالتالي غير طرف في هذه الشراكة أو شريك غير مباشر. والجهات المستفيدة وهي الضلع أو الشريك الأضعف المستغل دائماً والبعيد عن الصراع والمغلوب علي أمره والمتحدث باسمه من قبل الشركاء الآخرين.

فالضلعين أو الشريكين الأول والثاني يستغلان الوضع الإنساني والظروف الحرجة التي تواجه الضلع أو الشريك الثالث من أجل الحصول علي تمويل لبرامجها. فمن المدافع عن كرامة ضحايا الجفاف المجاعات الحفاة العراة الجوعي وصورهم تتصدر إعلانات التبرع "لإنقاذ ضحايا كارثة كذا" علي وسائل الإعلام وصفحات الإنترنت؟. وقد يستغل الشريك الأول الأوضاع السياسية في الدولة المستقبلية للدعم ويستخدم ما يقدم من دعم عيني أو مادي وسيلة ضغط سياسية. وقد يستغل الشريك الثاني ضعف وقلة حيلة الشريك الثالث فيوجه معظم ما قدم من دعم لدعم المنظمة وتسيير برامجها وصرف غير مبرر يظهر في تشدها وتمركز مقار رئاستها في عواصم الدول لا أقاليمها، وفي الصرف علي وسائل الحركة والرواتب والمخصصات العالية نسبياً إذا ما قورنت بالرواتب والمخصصات التي تمنحها الدول لموظفيها. فمن السؤل عن حماية حقوق الشريك الثالث؟. وحتى هذا الأخير غير معصوم أهله من استغلال بعضهم البعض، فكم من ممثل لمجتمع محلي أو لجهات مستفيدة استأثر بحقوق آخرين وحرهم من حقوقهم المشروعة من غذاء أو دواء أو كساء؟. فمن يحمي الجهات المستفيدة أو المستضعفة من نفسها؟. والدولة نفسها، إن كانت مسئولاً أولاً أو

شريكاً غير مباشر أو مراقباً، فإنها أيضاً مشاركة في هذا الاستغلال بصور شتى، منها تضخيم حجم الكارثة أملاً في دعم مقدر أو في توجيه بعض الدعم لجهات أخرى قد تزي في ذلك أولوية. فمن الذي يحمي الشريك الثالث أو المستفيدين من استغلال الدولة التي هي في الأصل مسئولة عنه ومناطق بها حمايته؟.

فالدولة وأضلاع الشراكة الثلاث بحاجة ماسة إلى وضع نموذجي للشراكة، يقتضي الالتزام المشترك نحو المستضعفين الذين من أجلهم تتحرك الموارد ويبني العمل الطوعي. وبحاجة إلى تنظيم يحفظ الحقوق، يحفظ للدولة سيادتها، وللمنظمات الداعمة أو الممولة حق متابعة ومراقبة وتقييم النشاطات الممولة لها، وللمنظمات المجتمع المدني المحلية حق المبادرة وممارسة نشاطاتها دون ضغوط أو تدخل يشل حركتها، ويحفظ للجهات المستفيدة حقها في التمويل وفي الشراكة القائمة علي الحقوق لا علي الوصاية في كل البرامج الخاصة بهم.

**(ب) ضعف التنسيق:** التنسيق هو محور العملية الإدارية، ذلك لأن الإدارة في الأصل هي العملية الخاصة بتنسيق جهود العناصر المادية والبشرية من أجل تحقيق الأهداف المخطط لها. وإن هدف الجهات العاملة في مجال إدارة الكوارث هو التعرف على طبيعة الخطر والضعف المؤديان لحدوثها والتي على ضوءها يتم تحديد النظم والتدابير اللازمة لمواجهتها ومن ثم تنفيذ هذه النظم والتدابير للتحكم في آثارها وتخفيف حدتها. إدارة الكوارث بهذا المعني هي سلسلة جهود ليس بالضرورة إن تكون حصرية على تخصص معين أو إدارة معينة، بل هي جهود جماعية تشارك فيها بجانب الإدارات الحكومية المختلفة، المنظمات الطوعية والقطاعات الاجتماعية والمؤسسات الدينية ومؤسسات القطاع الخاص والقيادات المحلية ولكل دور مهم في إدارة الكوارث. لذا تكون الحاجة ملحة للتنسيق، إذ لا تستطيع جهة إدارية لوحدها أن تقوم بكافة النشاطات الكثيرة والمعقدة والمتصلة بإدارة الكوارث، خاصة في ظروف الطوارئ.

وضحت بعض الدراسات ضعف التنسيق بين أعضاء الشراكة سالفه الذكر. وفي هذا الصدد، أشارت دراسة "المنظمات الطوعية الوطنية والمنظمات الأجنبية" إلى أن "المنظمات الطوعية الأجنبية والمنظمات الدولية المانحة والسفارات ظلت لأكثر من عشر سنوات تقوم بعقد لقاءات دورية مكثفة ومنتظمة لتبادل المعلومات وتوحيد الجهود والرؤى والتصورات دون مشاركة الجهات الحكومية والمنظمات الطوعية الوطنية" (محمود، 2003). ومن ثم أصبحت هذه المنظمات، فيما

بعد، تقود حملات تحديد الاحتياجات، وتتحكم في تحديد الدعم، الشيء الذي جعلها منها جبهة قوية صعبة الاختراق من قبل الدولة أو المنظمات الطوعية الوطنية.

إن الهدف الأساسي الذي أنشئت من أجله مفوضية الإغاثة إعادة التعمير، وزارة العون الإنساني حالياً، هو تنسيق نشاطات الأطراف المشاركة في العمل الطوعي ومن ثم تسهيل عمليات التخطيط والتنظيم والتوجيه والإشراف والمتابعة والتقييم. ولكن هذا الهدف، مع وضوحه، لم يتحقق كلية في إدارة الكوارث لعدم وجود التوزيع المحكم لنشاطات الأطراف المشاركة وفقاً لنظام شراكة متطورة. فعلي سبيل المثال هنالك تداخل واضح في اختصاصات وزارة العون الإنساني ووزارة الداخلية ممثلة في المجلس الأعلى للدفاع المدني، خاصة في رؤى وسياسات واستراتيجيات إدارة الكوارث.

ينعكس ضعف التنسيق أيضاً بين المنظمات الأجنبية والوطنية في محدودية تبادل المعلومات، وانعدام الثقة بينها، الشيء الذي يؤدي إلى زيادة تكلفة الحصول على المعلومة. أكد عبد العاطي (1991) في دراسته عن الأثر التنموي لنشاطات المنظمات غير الحكومية بمحافظة سنكات أن عدم الثقة متوفر بين المنظمات غير الحكومية من ناحية والدوائر الحكومية من ناحية أخرى. ففي بعض الأحيان يجري مسح ميداني لمنطقة متأثرة بكارثة ما أكثر من مرة من قبل أكثر من منظمة لانعدام الثقة. وهذا بالطبع يؤخر استجابة المنظمات الداعمة لتلبية حاجات المجموعات المتأثرة مما ينعكس سلباً على أوضاعهم الكارثية.

## 8. الخاتمة :

مما سبق، يتضح أن السودان غني بآليات العمل الطوعي، المعروف منها محدود، وكثير منها غير ذلك ويحتاج لعمل بحثي عميق. ويتضح بما لا يدع مجالاً للشك أن آليات العمل الطوعي جزء أصيل في جميع عمليات إدارة الكوارث بالسودان. وأن مجرد التفكير في إدماج آليات العمل الطوعي في إدارة الكوارث أو العكس فرية تحتاج إلى دراسة. أن النظم والقوانين تسن في الأصل لحفظ الحقوق، ولكن القوانين التي تفشل في تحقيق تلك الغاية بحاجة إلى تقويم وإن العمل الإنساني حساس بطبعة، والشراكة تحتاج إلى وضوح وشفافية، الأمر الذي يتطلب تنظيمياً للعمل الطوعي لا يجهض البعد الإنساني فيه ولا يقتل ما تبقى للناس من مروءة. قال أحد الشعراء:

مررت علي المروءة وهي تبكي فقلت علام تنتحب الفتاة  
فقلت كيف لا أبكي وأهلي جميعا دون خلق الله ماتوا

فهل يموت العمل الطوعي في السودان؟ أم أنه سينظم وتعطي لوائحه وقوانينه كل ذي حق حقه؟ خاصة المستضعفين الذين هم دائما خارج إطار المشورة؟. ولعل في توصيات هذه الورقة ما يساهم في إيجاد حل لبعض هذه الأسئلة، والتوصيات هي:

1. النأي بقيمة التطوع الإنسانية وبآلياته السودانية السمحة عن قضايا التسييس بكل ألوانه وأشكاله.
2. العمل علي تعزيز آليات العمل الطوعي بإدخالها في مناهج التعليم العام، وعلي وجه التحديد منهج الإنسان والكون، أو مفردات المقررات التي تدعم برامج التربية الوطنية، وفي قضايا البحث العلمي بمؤسسات التعليم العالي، وفي الأعمال الدرامية والإعلامية بالقدر الذي يؤكد فعاليتها في الوحدة والسلام والتنمية.
3. الاستفادة من تجارب بعض المنظمات ذات الخبرات الطويلة في العمل الطوعي والمتطوعين (جمعية الهلال الأحمر السوداني)، ومحاولة تطبيق تجاربها المؤسسية والهيكلية لتوسيع دائرة التطوع لتشمل كل بقاع السودان.
4. تدريب المتطوعين وتزويدهم بقيم التطوع والقدرات اللازمة للاستعداد الكوارث ولمواجهتها وللتخفيف من حدتها وإعادة التوازن من بعدها.
5. لتأكيد علي الاعتماد علي المتطوع النوعي المختص في أداء عمل محدد ويحتاج إلي تدريب عال في إدارة الكوارث (رسم خرائط الخطر، إجراء المسوح الميدانية، كتابة التقارير ... الخ)، بغية الاستفادة مئة في قيادة وتوجيه جهود متطوعين آخرين محدودة خبراتهم تدفعهم مشاعرهم وقيمهم نحو العمل الطوعي.
6. العمل علي صهر وتنظيم وتقنين عمل المنظمات الأجنبية والوطنية والمؤسسات الحكومية ذات الصلة في منظومة تنسيقية واحدة بغية الوصول لشراكة إيجابية تعمل علي توحيد المناهج الإستراتيجية لدرء الكوارث، وملء الفراغات، والتقليل من تداخل الاختصاصات، وتسهل عملية المشاركة في المعلومات المتاحة بين الجهات المشاركة، وتطور الأداء وتقليل النفقات وتسريع عمليات التدخل في حالات الاستجابة للكوارث.

7. توسيع دائرة دور القطاع الخاص "الضيقة" للمشاركة في الأعمال الطوعية، وذلك بإشراكهم في فعاليات العمل الطوعي لتأكيد دورهم في تلبية حاجات المجموعات المتأثرة.

## المراجع:

1. ابن منظور, أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم, (1955م), لسان العرب, دار صادر, دار بيروت, بيروت.
2. الطيب, حسن أبشر, (1992), إدارة الكوارث.
3. المجلس السوداني للمنظمات الطوعية "إسكوبا", (2003), النشاط الطوعي في السودان, مؤتمر المنظمات الطوعية العربية, 8 - 9 مارس, قاعة الصداقة الخرطوم.
4. حياتي, عمر أحمد المصطفى وآخرون, (2005), الاستعداد للكوارث, برنامج تقليل مخاطر الفيضانات, قسم الطوارئ, إدارة البرامج, جمعية الهلال الأحمر السوداني.
5. حياتي, عمر أحمد المصطفى, (1994), استراتيجيات التكيف التقليدية مع ظروف نقص الغذاء: دراسة حالة قبيلة الهدندوة, محافظة سنكات, ولاية البحر الأحمر. رسالة ماجستير غير منشورة, كلية الدراسات العليا, جامعة الخرطوم.
6. حياتي, عمر أحمد المصطفى, (2003), دور العمل الطوعي في بناء السلام في السودان: دراسة حالة جمعية الهلال الأحمر السوداني, اجتماع الجمعية العمومية واللجنة المركزية, المقر الدائم للمعسكرات, سوبا.
7. محمد, سليمان يحيى, (بدون تاريخ), توظيف الفولكلور لتحقيق السلام والتنمية في دارفور, موقع مركز الدراسات السودانية بالشبكة العنكبوتية (الإنترنت).
8. محمود, عمر عثمان, (2003), وسائل العمل الطوعي: المنظمات الطوعية والمنظمات الأجنبية, جمعية الهلال الأحمر السوداني.

## References

1. Sen, (1981) Poverty and Famine: An Essay on Environment and Deprivation, Oxford, Clarendon.

2. Hill, (1970) A. R. (1987) Ecosystem Stability: Some Recent Perspective. Progress in Physical Geography 11 (3) : 313- 33.
3. Dahl, G. (1988), Who can be Blamed? Interpreting the Bija Drought, Paper for International Conference on Environmental Stress and Security, Stockholm.
4. Mortimore, M. (1989), Elements of Famine Process and Ecology of Adaptation, Paper Presented at First Workshop of the Study Group Famine Research and Food Production Systems, of the International Geographical union, Frebrug University, 10 -14 November.
5. Patel, M, (1992), Traditional Coping Mechanisms and Strategies in Relation to Food Crisis in Sudan, Unicef Sudan Country Office, Khartoum.